مقدمة

[لا يؤلف أحد كتاباً إلا في أحـــد أقسام سبعة ، ولا يمكن التأليف في غيرهـــا ، وهي : إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو طويل يختصره ، دون أن يخل بشيء في معانيه، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيـــه مصنفه يبينه ، أو شيء مفرق يجمعه] (١).

هذه القاعدة الرشيدة التي قالها عالم أزهري ، من علماء القرن السابع عشر الميلادي ، تحتفظ دائماً بقيمتها، وهي تدعو دائماً كل كاتب أن يسير على نهجها.

ولسوف يكون لدى قارئنـا الواعي فرصة أن يقدر الى أي مدى يوفي كتابنا – الذي نقدمه اليوم إليه – بهذه الشرائط؛ فلم يكن شروعنا في هذا المؤلَّف الجديد عن القرآن ، عبثاً نضيع فيه وقتنا ، ونثقل به على قرائنا ،

---

(١) شمس الدين البابلي المتوفى سنة ١٠٧٧ هجرية ، ذكره "ملا" المحبي ، محمد أمين بن فضل الله، في خلاصة الأثر في أعيـان القرن الحادي عشر ٤/٤١ (ط القاهرة ١٢٨٤ هـ).

ونزحم به مكتباتنا ، فإذا لم يأتِ عملنا هذا بشيء جديد في عالم الشرق أو الغرب ، فلن يكون سوى مضيعة وزحمة وإثقال .

١ – الوضع السابق للمشكلة :

إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام – التي كتبها علماء غربيون – كافية لنلحظ فيهـــا فراغاً هائلاً وعميقاً ، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني .

والواقع أن هذه المؤلفات تذكر لنـا باختصار ، أو بإفاضة ، المبادىء الأخلاقية ، كما ارتأتهـــا الوثنية الإغريقية ، ثم أديان اليهودية والمسيحية . ولكنها حين تنتهي من عرض هذه المراحل الثلاثة ، نجدهـا تنقلنا بغتة الى العصور الحديثة ، في أوربا ، مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقي في الاسلام .

وبرغم هذا ، فإن الإضافة القرآنية في هذا الباب ذات قيمة لا تقدَّر ، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سعة ، وعمقاً ، وتوافقاً ، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منهـــا ، في حل مصاعبها ، سواء في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة .

أليست إذن خسارة ضخمة أن يغفل أمر نظرية كهذه ، وأن يلفهـا الصمت ؟..

والحق أنه لو أننا – بدلاً من أن نبحث في هذه المؤلفات عن علم الأخلاق العام – لجأنا الى الكتب الأوربية ، التي تعالج مسائل الإسلام بخاصة ، فسوف نجد أن محاولات قد تمت خلال القرن التاسع عشر ، من أجـــل استخراج المبادىء الأخلاقية من القرآن ، بيد أن إطار هذه المحاولات ، كان في الغالب محدوداً ، كما كان مضمونها بعيداً عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية الحقة .

Scanned with CamScanner

فمن حيث الإطار نجدهم أغفلوا الجانب النظري من المسألة : فليس هنالك عالم أوروبي واحـد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الاخلاقيـة العامة ، وفضلاً عن ذلك ، فلم يكن لدى أيٍّ من بينهم اهتمام بأن يصوغ قواعده العملية ، ويقدمها في صورة دستور كامل. وإنما انحصرت كل جهودهم في أن جمّعوا عدداً ، قليلاً أو كثيراً ، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة ، أو بالسلوك ، وترجموها ترجمة حرفية .

ويبدو لنا ، أن الذي استهل هـــذه المجموعة من النصوص المختارة من القرآن كان المستشرق جارسان دي تاسي Garcin de Tassy، فقد قدم لنا مؤلفاً صغيراً بعنوان : « القرآن : مبادئه وواجباته » [باريس ١٨٤٠م]. وتبعه المستشرق لوفيفر Lefèvre ، الذي نشر عام ١٨٥٠ م قطعاً مختارة من ترجمة سَفري Savary ، بعنوان : « محمد : قوانين أخلاقيـة ، ومدنية ، ودينية » . ثم جاء من بعدهما بارثلمي سانت هيلير Barthelemy S. Hilaire في كتابه : « محمد والقرآن » [باريس ، نشر ديديه Didier ١٨٦٥ م] . هذا من حيث الإطار الذي سيقت في داخله بحوث ذلك العهد .

وأما من حيث عيوب المضمون فمرجعها إمـا الى ترجمات غير صحيحة ، وإما إلى تلخيص سيىء ، وإما الى الأمرين معاً ، وهو ما نجده واضحاً لدى المستشرق جول لا بوم Jules La Beaume في كتابه : « تحليل آيات القرآن Koran Analysé [باريس Maisonnenve ١٨٧٨ م] . وهو مع ذلـك أقل الأعمال التحليلية في هذا المجال بعدا عن التمام (١).

---

(١) بيد أنه الى جانب تكرار الآيات تحت عناوين مترادفة ، وبرغم الأخطاء المختلفة عن ترجمة كازيمرسكي Kasimirski – التي اضطر جول لابوم أن يستخدمها لجهله بالعربية – فإن العناوين التي أراد بها تلخيص الآيات لا تتفق مع النصوص التي يقلب معناها أحياناً ، ويحس المرء في بعض المواضع أن القرآن يدفع الناس الى الأنانية ، وإلى الثأر ، وأنه قد أباح لهم الغدر ، والخيانة ، والحنث في اليمين ، الى غير ذلك مما يعيينا حصره ...

Scanned with CamScanner

ولذلك بدا لنـا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد ، وأن نعالجه تبعاً لمنهج أكثر سلامة ، من أجل تصحيح هذه الأخطاء ، وملء هذه الفجوة في المكتبة الأوربية [1] ، وحتى نُرِيَ علمـاء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية ، وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا

* * *

بيد أننا بالرجوع إلى مكتبتنا الاسلامية نفسها ، لاحظنا أنهـا لم تعرف حتى الآن سوى نوعين من التعاليم الأخلاقية : فهي إما نصائح عملية ، هدفها تقويم أخلاق الشباب ، حين توحي إليهم الاقتناع بالقيمة العليـا للفضيلة [2] ، وإما وصف لطبيعة النفس وملكاتها ، ثم تعريف للفضيلة وتقسيم لها ، مرتب في غالب الأمر بحسب النموذج الافلاطوني ، أو الأرسطي [3] ، وكثيرا مـا نرى المنهجين يتعاقبان في قلم كاتب واحد [4] ، وإذن فلم يكن هنالك سوى كتب إنسانية محضة ، أجهد مؤلفوها أنفسهم ، فاستودعوها ثمرات تأملاتهم ، ودراساتهم الفلسفية ، ولم يظهر فيها النص القرآني كليّة ، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية .

فلم تكن الاخلاق القرآنية إذن الموضوع الرئيسي للدراسة ، والتقنين ، لدى المسلمين أو المستشرقين ، لا من الناحية النظرية ، ولا من الناحية العملية .

---

(١) سوف يتبين بعد ذلك أن الكتاب قد ملأ هذه الفجوة في المكتبة العربية أيضاً ، حين وفق الله الى تعريبه ، على نحو ما يلمس القارىء . « المعرب ».

(٢) نذكر من خير الكتب التي من هذا النوع رسالة ابن حزم « مداواة النفوس » طبعة أدهم بالقاهرة .

(٣) خير كتاب تبع هذا النظام ، وأشهره هو كتاب ابن مسكويه :« تهذيب الأخلاق» ـ المؤلف ـ ، وقد نشرته الجامعة الامريكية ببيروت عـام ١٩٦٦ ، بتحقيق الأستاذ قسطنطين زريق . « المعرب » .

(٤) يظهر هـذا لدى الأصفهاني في « الذريعة » ، وبصورة اكثر كمالاً وامتداداً لدى الغزالي في كثير من كتبه ، وبخاصة موسوعته الاسلامية : « إحياء علوم الدين ».

Scanned with CamScanner

ونحسب أن من الواجب أن نضيف بعض التحديد الى هذا التأكيد المزدوج ، ليصبح أكثر دقة ، ويخلص من كل لبس أو غموض .

ولسنا ندّعي ابتداء ، أن بحوثنـــا في **المجال النظري** تخوض في أرض لم يرتدْها أحد قبلنا، فإن العلماء المسلمين قد أعملوا قرائحهم منذ عهد مبكر في هذا الموضوع : علماء الكلام ، وعلماء الأصول ، فكروا جميعـاً في مقياس الخير والشر ، (أو بحسب تعبيرهم : مسألة الحسن والقبح) ، وفكر الفقهاء في شروط المسؤولية، وفكر الأخلاقيون والصوفية في فاعلية الجهد،وإخلاص النية والقصد . ولكننا إذا صرفنـــا النظر عن أن هذه الأفكار قد بقيت متناثرة في مختلف المذاهب التي تمسّ الاخلاقية من قريب أو من بعيد ، والتي لم تعنَ دائماً بوجهة النظر الاخلاقية بمفهومها الخاص ـ فإن النظرية الاخلاقية التي يقدمها هؤلاء تصدر في جانب كبير منها ـ على الأقل ـ عن روح المذهب الذي ينتمي إليه مؤلفوها ، إن لم تكن من محض نظراتهم الشخصية ، لأن القرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكملة ، شاهدا أو برهانـاً على فكرة أو أخرى سبق الأخذ بها .

وأما في **المجال العملي** فمن الحق أن الغزالي ـ كما نعلم ـ قد حاول في كتابه « جواهر القرآن »ـ أن يحلل جوهر القرآن،وأن يرده الى عنصرين أساسيين، يتصل أحدهمـا بالمعرفة ، ويتصل الآخر بالسلوك . وانتهى الى أن حصر في القرآن من النوع الأول سبعمائه وثلاثاً وستين آية ؛ كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية (١).

---

(١) فمجموع هذه الآيات يُرْبى على ألف وخمسمائة آية ، تمثـــل أقل من ربع القرآن بقليل ، وما عدا ذلك لا يعالج في رأيه سوى مسائل تكميلية ، وشأنهـا ـ على ما قال ـ شأن الصدفة التي تغطي المـادة الثمينة في الكتاب ، وقد دخل هذا العمل القديم مع بعض تعديلات يسيرة ـ الى اللغة الفرنسية ، على يد كاتب تركي ، هو الجنرال محمود مختار كتير جوغلو ، في كتاب بعنوان : « الحكمة القرآنيـــة ـ آيات مختارة ـ La Sagesse) Koranique. Versets choisies) (باريس Geuthmer ١٩٣٥) . وقـــد نشر المؤلف على هذه الصورة كتاب الغزالي مختصراً (ألفاً ومائتا آية ، بدلاً من ألف وخمسمائة آية)، بعد أن خلط خلطاً تاماً كلا عنصريه بالآخر ، حتى إنه ألغى عناوين السور ، وقد كانت من قبل متميزة .

ومن المؤسف أن هـــذا النوع من الحصر والتصنيف ، الذي يعد خطوة أولى في سبيل إعداد المواد للتشييد – لم يعقبه ما يقتضيه من عمل ضروري يهدف الى إعلاء البناء .

ومع ذلك ، يجب أن نعترف بأن اختيار المواد في العمل قد تم بوجه عام تبعاً لقاعدة ، وأن الآيات المختارة في القسم العملي تتوافق غالبـــاً مع موضوع دراستنا .

وليس الأمر على هذا النحو بالنسبة الى ما استخرجه القاضي أبو بكر الجصاص الحنفي (المتوفى عام ٣٧٠ هـ)[١]، في كتابه : « أحكام القرآن »، (طبعة اسطنبول ١٣٣٨ هـ)، وإلى ما استخرجه القاضي أبو بكر بن العربي، المالكي ، (المتوفى عام ٥٤٢ هـ) [٢] في كتابه المعنون أيضاً باسم : « أحكام القرآن » (نشر مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣١ هـ) . وكذلك بالنسبة الى ما استخرجه **ملا أحمد جيون** الهندي الحنفي ، (المتوفى عـام ١١٣٠) في كتابه « التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية » (بومباي ١٣٢٧ هـ).

ولم يقتصر الأمر في هـــذه الكتب على أن نجد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقي ، وقد غرقت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات

---

(١) أحمد بن علي الرازي ، أبو بكر الجصاص ، فاضل ، من أهل الري ، سكن بغداد، ومات فيها ، انتهت اليه رياسة الحنفية ، وخوطب في أن يلي القضاء فامتنع ، وألف كتاب « أحكام القرآن » ، وكتاباً في « أصول الفقه » . المعرب

(٢) محمد بن عبدالله بن محمد المعافري ، الأشبيلي المالكي ، أبو بكر بن العربي ، قاض من حفاظ الحديث ، رحل الى المشرق ، وبرع في الأدب ، وبلغ رتبة الاجتهـاد في الدين ، وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، وولي قضاء اشبيلية ، ومات بقرب فارس ، ومن مشهور كتبه : « العواصم من القواصم » و « وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي » و « أحكام القرآن ». المعرب

Scanned with CamScanner

فقهية ، أو أصولية ، أو كلامية ، أو كونية ، أو غيرها. بل لقد رأينا لدى القاضيين آيات مذكورة بمناسبة مسائل ، لا يتصل النص بهـا إلا من بعيد ، وقد اعتبرت هذه المسائل ببساطة مناسبة لذكرها .

وعلى كل حال ، فإن جميع المؤلفين ، بمـا فيهم الغزالي ، وقد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور – جعلوا من مختاراتهم مجرّد جمع لمواد متفرقة، لا تربط بينها روح قرابة ، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار . ولذلك ، فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية ، تربط بين الأجزاء المختارة ، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم .

وقد وجدنا هذا النظام المنطقي لدى بعض العلماء الشيعة ، من مثـل : الشيخ أحمد بن محمد الاردبيلي (المتوفى عـام ٩٩٣ هـ) ، في كتابه : « درة البيان في آيات الأحكام »[1] ، ومن مثل الشيخ أحمد بن اسماعيل الجزائري النجفي (المتوفى عام ١١٥٠ هـ) في كتابه : « قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر »[2] ، غير أن هذين الكتابين[3] اللذين يمكن أن يعدا فهرساً

---

(١) أحمد بن محمد الاردبيلي – فاضل من فقهاء الامامية وزهادهم ، نسبته الى أردبيل بآذربيجان , ووفاته بكربلاء ، ومن كتبه : « مجمع الفوائد والبرهان في إرشاد الأذهان » و « زبدة البيـان في شرح آيات أحكام القرآن » . وهو ما نقل المؤلف عنوانه مختلفـاً ومختصراً . « المعرب ».

(٢) أحمد بن اسماعيل الجزائري النجفي ، فاضل إمامي ، أصله من جزائر خوزستان ، واشتهر في النجف ، وتوفي فيـه ، ومن كتبه : « قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر » . « المعرب » .

(٣) الكتابان مطبوعان في فارس ، وقد رتبت موضوعاتها تبعـاً للنظام المعتاد لكتب الفقه ، وتوجد منهما نسخة لدى صديقنا وزميلنا القاضي الشيخ أحمد محمد شاكر – بالقاهرة .

لنصوص القرآن المتعلقة بالفقه الاسلامي – لا يعالجـــان الأوامر الاخلاقية إلا نادراً ..

وهكذا لم ينهض أحد – فيما نعلم – حتى الآن باستخلاص الشريعة الاخلاقية من القرآن في مجموعه ، ولم يحاول أحد أن يقدم لنـــا مبادئها ، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه ، وتلكم هي المهمة التي انتدبنا للوفاء بها هنا ، بقدر ما تطيقه وسائلنا .

٢ – « تقسيم ومنهج » :

نحن نميز تحت لفظة (القانون الأخلاقي) – كما يميز جميع الباحثين تحت اسم الجنس – فرعين مختلفين هما : النظرية والتطبيق .

والواقع أن دراستنا للنص القرآني قد أوحت إلينـــا ، لا بوجود هذين الفرعين لعلم الاخلاق في القرآن – فحسب ، بل لقد كشفت لنـــا عن أن الصورة التي جاءت بها بلغت درجة من الكمال لا يُبتَغى وراءها شيء .

الجانب العملي : وقد بحثنا في رسالة حديثة النشر – الاخلاقية العملية في القرآن ، في علاقتها بالحكمة القديمة ، واستطعنا أن نكشف فيهـــا عن ثلاث خصائص نوجزها فيما يلي :

فالقرآن – من حيث كونه حافظاً لما سبقه ، واستمراراً له – قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله ، وهوالذي ظل متفرقـــاً في تعاليم القديسين والحكماء ، من المؤسسين والمصلحين ، الذين تباعد بعضهم عن بعض ، زماناً ومكاناً ، وربما لم يترك بعضهم أثراً من بعده يحفظ تعاليمه .

ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن ، وإن لم تكن أثمن سماته ، ولا آصلها .

Scanned with CamScanner

وإنما تبدو أصالة هذا التعليم الأخلاقي في أجلى صورها ، في طريقته التي سلكها لتقديم تلك الدروس المختلفة عن الماضين ، وتقريبهـا ، بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الانفصام، ويسوقها على اختلافها في إطار من الاتفاق التام ، وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل مـــا كان في ظاهر الأمر إفراطاً أو تفريطاً ، وبعد أن حقق وضع التعادل في ميزانهـا ، الذي كان يميل تارة إلى جانب ، وأخرى إلى جانب آخر – دفعها جميعها في اتجاه واحد ، ثم نفخ فيها من روح واحدة، بحيث صار حقاً أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الاخلاق .

وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق، فليس يكفي– في الواقع– لكي نصف أخلاق القرآن ـ أن نقول : إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته ، وإنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلافهم ، بل ينبغي أن نضيف : أن الاخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس ، وجمّلته ، حين ضمت إليه فصولاً كاملة الجدة ، رائعة التقدم ، ختمت الى الأبد العمل الاخلاقي[1].

ولسوف يكون علينـا في هذه الدراسة أن نعالج الأحكام العملية التي جاء بها القرآن في ذاتها ، وفي مرحلتها النهائية من تطورها، وحسب القارىء بعد ذلك أن يتصفح النصوص التي نوردها في نهاية هـــذا الكتاب ، ليدرك رحابة هذا النظام وجماله .

ولسوف يختلف منهجنا كثيرا في عرض هذا الجانب عن المنهج الذي اتبعه سابقونا . فلما كنا ـ أولاً ـ لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الاتصال بالموضوع ، فقد اكتفينا بأن سقنا بعضاً منها ؛ ذا دلالة كافية

---

(١) انظر كتابنا « المدخل الى القرآن - Initiation du Koran » القسم الثاني- الفصل الثاني ، وسوف تجد هنالك أمثلة عديدة مادية ، تشهد بوجود هذه الجوانب الثلاثة فيما أضافه القرآن : إجمال لما سبق ، وتوفيق بين وجهات مختلفة فيه ، وإكمال لجوانب ناقصة.

Scanned with CamScanner

على القواعد المختلفة للسلوك ، ثم حاولنـا من بعد ذلك أن نتجنب التكرار بقدر الإمكان .

واتبعنا أخيرا نظاماً منطقياً بدلاًمن التزام نظام السور(الذي تبعه الإمام الغزالي) ؛ أو النظام الأيجدي للمفاهيم (كما فعل جول لابوم) . فالنصوص في عملنا هذا مجمعة في فصول، بحسب نوع العلاقة التي سيقت القاعدةلتنظيمها، وقد مُيِّزَت في داخل كل طائفة عدة مجموعات صغيرة من النصوص ، وضعنا لها عنواناً فرعياً يوجز التعليم الخاص الذي يستقي منها ، بحيث يتاح للقارىء أن يجد الحكم الذي يبحث عنه بكل سهولة .

وتنظيم النصوص بمجموعها على هذا الوجه يبني لنـــا منهجاً كاملاً للحياة العملية كما رسمها القرآن : كيف ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه ، وفي أسرته ، ومع الناس أجمعين ؟.. وما المبادىء التي يجب أن تحـكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، وبين الدول أو المجتمعـــات ؟.. وكيف يؤدي الانسان العبادة لله ؟.. وكل ذلك قد قيل بطريقة واضحة ومحددة .

هذا الطابع الإجمالي يجد ما يكمله في طابع آخر ، يمنحه قيمته العليـا ، ذلك أن القرآن ـ بعد أن رسم لكل مجـال من مجالات الحياة خط سلوكه ـ يقدم لنا أُطراً معدة على هيئة دوائر مشتركة المركز ، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع ، وتنكمش ، في توافق مع المجموع . بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل ، دون أن تطغى إحداها على الأخرى .

كيف استطاع القرآن أن يحدث هذا الأثر المعجز ؟.

لقد كان منهجه غاية في البساطة ، حين تخير لبيـان قواعده أقوالاً ذات تأثير خاص ، وهي أقوال تقف دائمـــاً في منتصف الطريق ، بين المجرّد : غامضه ومبهمه ، وبين الحسيّ المفرط في الشكلية . وكذلك نجـد أن الأطر التي يبنيها صارمة ومرنة في آن .

Scanned with CamScanner

فمن حيث وضوح المضمون نجد أن وضوح كل قاعدة يوجِد نوعـــاً من الحجاز ، يقف في مواجهة الفوضى ، وجموح الهوى ؛ ولكنها من حيث عدم تحديد هذا المضمون تترك لكل فرد حرية اختيار الشكل الذي يكيف في نطاقه مثله الأعلى ؛ طبقاً للشروط التي تمليها التجربة ، كما يختار الشكل الذي يوائم به بين الواجب العاجل والمقتضيات الأخرى التي تمليها الأخلاقية . فهما أمران : تكييف ومواءَمة ، ينبغي أن يتما بوساطة جهد راشد ، بعيد عن الإرخاء ، وعن الغلواء ، التي لا ضابط معها .

وبهذه الطريقة استطاعت الشريعة القرآنية أن تبلغ كمالاً مزدوجـاً ، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين شقيه : لطف في حزم ، وتقدم في ثبات، وتنوُّع في وحدة .

وبهذه الطريقة أيضاً ، أتاحت الشريعة القرآنية للنفس الانسانية أن تطمئن الى سعادة مزدوجة ، تجمع أيضاً بين النقيضين : خضوع في الحرية ، ويسر في المجاهدة، ومبادأة في الاستمرار، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة.

ومن ثم أخذ بعضهم على الاسلام أنه لم يحدد مثلاً الطريقة التي يستشار بها الشعب في القضايا العامة ، ولم يحدد شكل الدولة المسلمة ، وطريقـة اختيار رئيسها : أهي اقتراع شامل ، أم مقتصر على الصفوة ؟. وهل هي جمهورية ، أو ملكية ؟ الخ ..

هذا البحث المفرط في التحديد القانوني ، يمكن أن يظهر لدى أولئك الذين يضعون القانون، أو أولئك الذين يخضعون له . ففي الحالة الأولى يفرض القانون ويحتمه نوع من الحذر لدى المشرعين ، إزاء الأفراد الذين ينـاط بهم تطبيقه ؛ ومع ذلك فهو يتجه الى إلغاء كل مبادأة ، وإلى أن يجعل الحيـاة المشتركة رتيبة ، لا تطاق ، وإلى أن يجعل من أعضاء المجتمع ما يشبه النسَخ المكررة من نموذج آلي واحد .

Scanned with CamScanner

لكنا قـد نصادف بين المحكومين أنفسهم أُناساً يودون أن يتولى المشرع بنفسه تحديد كل شيء وتقنينه ؛ فإذا افترضنا أن هذا المشروع يمكن أن يتحقق ، فكيف نفسر اقتضاءً من هذا القبيل بالغـاً أقصى مداه ، إلا بأنه تلمس لأدنى جهد عقلي وأخلاقي ..؟.. إن لم نقل ، إنه تنازل محض وبسيط عن الشخصية !!

إن القرآن لا ينقض ذلك الاتجـاه الى حصر كل القواعد ، كما لا ينقض الاتجـاه المضاد ، فهل كان هذا التصرف الحكيم ، وذاك الموقف الوسط الذي يقف فيه الفرد دائماً بمعزل عن طرفي نقيضٍ – مجرد اتفاق ؟ أو تحكماً واعتسافاً ؟ أو أن له غاية معينة ؟.

إننا لكي نقتنع بأن القرآن في إيجـازه ، وفي تفصيله ، يهدف الى تلك الحكمة التشريعية المنزهة – حسبنا أن نتذكر الواقعة التالية :

« فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يأيها الناس ، إن الله قد فرض عليكم الحجَّ ، فَحُجُّوا ، فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ . فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلتُ : نعم ، لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا استطعتم؛ ثم قال : ذروني ما تركتكم[1]، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فَاتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فَدَعُوهُ »[2] وفي رواية أخرى اكثر تصريحاً ، رواها ابن جرير موقوفـة عن أبي ثعلبة الخشني ، ورويت مرفوعـة الى النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت

---

(١) يريـد أن يقول : لا تستثيروا الوحي ، ولا تفتشوا عن شرائع لتضعوها حين لا تجدوها .

(٢) رواه مسلم ، وورد بمعناه في ابن حبان - ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٣٥.

عن أشياء رحمةً لكم ، غيرَ نسيانٍ ، فلا تبحثوا عنها »[1] . ويذكر ابن حبان أن ظروفاً كهذه الظروف كانت مناسبة لنزول قوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللهُ عَنْهَا ، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ، قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ »[2].

هذا الاستبعاد للمبالغة والإفراط في(كيف ؟ وكم ؟) من القواعد القرآنية – إجراءٌ اتُّخِذَ صراحة ، كيما يتسنى لكل فرد أن يمارس طاقته العقلية والجسمية والخلقية ، بطريقة تختلف عن غيره . فهذا هو ما يتصل بالأخلاق العملية ، والسمات العامة التي تحددها ؛ فلنمض الى الاخلاق النظرية :

الجانب النظري : وهنا يفارق منهجنا أيضاً المنهج العام ؛ ذلك أن ما يهمّ غالبية علمائنا في المقام الأول هو الجانب الاقتصادي ، أو الشرعي ، ونحن بادىء ذي بدء ، نركز اهتمامنا على المجال الاخلاقي ؛ واضعين كل مسألة في المصطلحات التي تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين .

ونحن من ناحية أخرى نتخذ من القرآن ذاته نقطة انطلاق ، بحيث كان دأبنا الدائب أن نستخرج منه الإجابة عن كل مسألة ، بالرجوع المباشر إلى النص . وهنا تكمن الصعوبة؛ فإن النصوص المتعلقة بالنظرية الاخلاقية ليست بالكثرة والوضوح اللذين تمتاز بهما الأحكام العملية ، غير أن هنا سؤالاً مسبقاً ينبغي أن يطرح :

هل القرآن كتاب نظري ؟ أو هل يمكن أن يلتمس فيه ما يلتمس ، من المؤلفات والأعمال الفلسفية ؟.

---

(١) حديث حسن رواه الدارقطني وغيره ، وللمؤلف هنا طريق أخرى « المعرب ».
(٢) المائدة - ١٠١ - ١٠٢ .

Scanned with CamScanner

– إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي ، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعي ، ينتقل فيه المفكر من حكم الى آخر ، بمنهج معين ، للتوصل الى إقرار نظام معين ، قادرٍ على تفسير الأشياء في عمومها ، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء. وبدهي أن هذا الجهد العقلي؛ وهذه الخطوة التدريجية – لا يتناسبان مع ضوء وحي ، يغمر النفس دون بحث أو توقع ، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة ، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها ، ولا المقدم تاليه .

فليس القرآن إذن عملاً فلسفياً ، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة ، وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفي ، بالاضافة الى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة ، وهي طرائق المنهج العقلي ، التي تقوم على : (التعريف ، والتقسيم ، والبرهنة ، والاعتراضات ، والإجابات) ؛ وهي كلها أمور متلاحمة دون جدال ، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس ، هو الجانب العقلي ، على حين أن للقرآن منهجه الذي يتوجه الى النفس بأكملها ؛ فهو يقدم إليها غذاءً كاملاً ، يستمد منه العقل والقلب ، كلاهما ، نصيباً متساوياً .

وهكذا يفارق التعليمُ القرآنيُّ التعليمَ الفلسفيَّ ، سواء في المصادر ، أو في المناهج . فهل هما يتفارقان كذلك في موضوعهما ؟. وفي هدفهما ؟.

إن القول بهذا معناه أننا نقرر – بعلم أو بلا شعور – أن القرآن ليس كتاب دين ؛ ذلك أنه مهما تكن الفروق بين الفلسفة والدين – والتي تتمثل في أن الأولى ، تستمد منبعها من ارتياب العقل ، على حين أن الدين يستمده من الضوء الكامل للوحي ؛ أو أن كليهما قد ينقاد أحياناً [1] وراء سراب

---

(١) نحن نتحدث هنا عن الدين بعامة ، لا عن الأديان المنزلة .

التخيل ، وأن أحدهما (وهو الفلسفة) ليس سوى معرفة محضة وبسيطة ، والآخر اقتناع عميق ، ومؤثر ، وأخّاذ – مهما تكن الفروق بينهما فإن للفلسفة في جانبها الأسمى ، وللدين في جميع أشكاله ، موضوعاً مزدوجاً ، مشتركاً ، هو : حل مشكلة الوجود ، أصله ومصيره ، وتحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للسلوك ، ولتحصيل السعادة .

بيد أن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية بخاصة ، وبين الفلسفة – أن نلحظ أن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق ، وعن الفضيلة لا يكتفي دائماً بأن يذكّر بهما العقل، ويثير أمرهما باستمرار أمام التفكر والتأمل ، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم ، ويتولى تسويغه . وفضلاً عن ذلك ، فإن طبيعة استدلالاته ، والطريقة التي يسوق بها الدليل ؛ قد اختيرت كلتاهما على وجه يفحم أعظم الفلاسفة دقة ، وأشد المناطقة صرامة ، في الوقت الذي تلبى فيه أكثر المطالب واقعية ، كما تروق أرقى الأذواق الشعرية وأرقها ، وأبسط المدارك وأقلها .

فليس يكفي إذن أن نقول : إن القرآن لا ينكر الفلسفة الحقة ، وليدة التفكير الناضج ، وعاشقة اليقين ؛ ولا يكفي كذلك أن نقول : إنه يوافقها ويشجعها ، وإنه يرتضي بحثها المنصف ، بل ينبغي أن نضيف الى ذلك : أنه يُمِدُّها بمادة غزيرة في الموضوعات ، وفي الاستدلالات .

ولا ريب أن القرآن لا يقدم إلينا هذه الحقائق الأساسية مجتمعة ، في صورة نظام موحد . بيد أننا نتساءل : إذا كان نظام كهذا لم يوجد كاملاً ، أفلا يوجد في هذا الكتاب جميع العناصر الضرورية ، والكافية لبنائه ؟.

الحق أنه لا مراء في أن القرآن مشتمل على جميع العناصر الأساسية للفلسفة الدينية : أصل الإنسان ، ومصيره ، وأصل العالم ومصيره، ومبادىء السبب والغاية ، وأفكار عن النفس ، وعن الله ... الخ ... وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة أن يخصص لها عمل مستقل .

Scanned with CamScanner

فأما أن يكون ذلك الكتاب قد تحدث في الوقت نفسه عن أسس النظرية الاخلاقية – فذلكم هو السؤال الأول الذي طرحناه في دراستنا هذه، والذي خصصناه بأعظم قدر من جهدنا .

وإنا لنعتقد أن بوسعنا أن نعلن منذ الآن أننـــا قد وجدنا لهذا السؤال إجابة واضحة ، وإيجابية تماماً .

إن القرآن لا يكتفي في الواقع بأن يضع قاعدة السلوك ، على وجه اكثر شمولاً وتفصيلاً ، كما لم يفعله أي تعليم عملي ، فقد وجدناه يرسي تحت هـــذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة . ولتَطرَح عليه مثلاً السؤال التالي :

على أي أساس ترتكز شريعة الواجب القرآني ؟

ومن أي معين تستقي سلطانها ؟ .

ولسوف يجيبك : بأن التمييز بين الخير والشر هو إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية ، قبل أن يكون شرعـة سماوية ؛ وبأن الفضيلة – في نهاية المطاف – إنما تتخذ مرقاتها من طبيعتها الخاصة ، ومن قيمتها الذاتية . وبأن العقل والوحي – على هذا – ليسا سوى ضوء هادٍ، مزدوج، لموضوع واحد، وترجمة مزدوجة ، لواقعٍ واحد أصيل ، تمتد جذوره في أعماق الأشياء .

واسْأله بعد ذلك : عن صفات هذه الشريعة ، وامتداد سلطانها ؟

ولسوف يقول لك : إنها شريعة عامة ، وأبدية ، تكفل للبشرية مطامحها المشروعة ، ولكنها تعترض بكل وضوح وتأكيد على شهواتهـــا الجامحة ، والمتحكمة .

وزد في سؤاله عن المسئولية الانسانية، وعن شروطها ، وحدودها ، وعن الوسيلة الناجعة لكسب الفضيلة ، وعن المبدأ الأسمى الذي ينبغي ان يحد الإرادة عن العمل ؟..

Scanned with CamScanner

أو سله عن اي مبدأ عام لا يملك اي اخلاقي بصير بعمله أن يغفله ؟.

ولسوف تجد فيه لكل سؤال حكماً محدداً وقاطعاً ، يفرض نفسه إجابة فريدة ، من شأنها ان تؤلف بين اكثر المشاعر نباهة واتزاناً .

والذي استولى في النهاية على إعجابنا ، هو ما رأينا من التباين المذهل بين الطريقة التي يقدم بها القرآن إجاباته على هذه الأسئلة ، وطريقة غيره .

فعلى حين أن هذه الحقائق الأساسية قد برزت الى الوجود في ضوء القرآن اللامع ، منذ اربعة عشر قرناً ، نجد أن مجتهدي المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن يصدرون دائماً عن تردد وارتياب، ولا يصلون الى أبعاض منها إلا بعد جهد جهيد ، دون أن يتوقّوا الوقوع في أخطاء فادحة .

٣ – دراسة مقارنة :

ويجب أن نعترف بأن تصورنا للخطة الأولية لهذا العمل كانت في شكل محدود ، بحيث لم نكن نتصور شيئاً سوى عرض القانون الاخلاقي المستمد من القرآن ، وربما من تعليم النبي ﷺ ، المبيّن الأول ، الثقة .

غير أن الأستاذ لويس ماسينيون M. Louis Massignon – الأستاذ في الكوليج دي فرانس ، في معهد الدراسات العليا بباريس ـ قد أبدى لنا رغبة في أن يرى هذه الدراسة تتناول في نفس الوقت بعض نظريات المدارس الاسلامية المشهورة ، وهو في سبيل هذا الهدف قد مكّننا مما ضمت مكتبته من مؤلفات نادرة وثمينة ، مخطوطة ، أو مطبوعة .

كما أن الأستاذ رينيه لوسن M. René Le Senne – الاستاذ بكلية الآداب، بجامعة باريس – ؛ قد اقترح علينا أن نقارن النظرية الاخلاقية المستمدة من

Scanned with CamScanner

القرآن ببعض النظريات الغربية. وقد استجبنا بحمد الله لما أبديا من مقترحات موفقة ، يبدو عملنا اليوم بفضلها أرحب مدى ، وأعظم توفيقاً .

فعملنا على هذا النحو نوع من التأليف ، تلتقي فيه الأفكار الاخلاقية ، من الشرق بنظيرتها من الغرب ، في مقارنة واعية ، محايدة ، بريئة من كل فكرة مسبقة ، ومن كل هوى متعصب لمدرسة بعينها ، رائدها الوحيد في كل مناقشة أن تحتكم الى العقل ، الذي يستهدي بالأسانيد الوثيقة .

ترى هل يكون هذا التقارب بين مختلف الثقافـــات استهلالاً في المجال العملي ، يعقبه فهم أرحب مجالاً ، ونزوع الى الانسانية أكثر امتداداً ، حيث تتجمع القلوب ، من هنا وهناك ، وتتشابك الأيدي لخير بني الانسان ؟!!

باريس في ٨ يونيو ١٩٤٧ — محمد دراز

Scanned with CamScanner